

وخز الضمير

ما لذع الافاعي ولسع المقارب وما طعن السيوف ووخز الرماح بأشد
فملاً في المرء من وخز الضمير واني محدثكم اليوم بحديث شاب رأيته فعل
الضمير فيه وتأثير وخزاته رأي الدين . ثم اعيدكم جميعاً من وخز الضمير في
مثل الساعة التي نار فيها على شارل فانه خير للمرء الف مرة ان يموت قبل ذلك
وشارل هذا فتى فرنسوي كان جميل الخلق والخلق فصيح المنطق وعي
من العلم شيئاً كثيراً وكان يحترف الصحافة فحدث انه احب وهو ابن العشرين
فتاة اسمها شارلوت ووعدتها من نفسه الاحسان وعاهدها على الزواج فاخلف
الوعد ونقض العهد وكانت العاقبة وبالأعلى عليها وعليه

لقيها في صباح يوم ماطر وكانت سائرة في لباس اسود بلا مظلة تحت
المطر المنسكب مشمرة عن ساقين مستديرين قافزة كالغزال لاجتناب برك
المياه والاحوال . فنظر اليها واذا هي الجمال متمثلاً في زي فتاة شقراء الشعر
زرقاء العينين بفهم كالخاتم وحاجبين كالقوسين

وعينين قال الله كونا فسكانا فعولين بالالباب ما تفعل الخمر

ففكر شارل في حيلة تمكنه من الوصول اليها ومحادتها ليعرف من هي
فلم يجد الا المظلة التي كانت في يده فتقدم اليها باسماء ورفع قبعته مسلماً وقال
يا سيدي لقد بلل المطر لباسك فهل تسمحين لي بان اجعل نفسي والمظلة التي
ممي في خدمتك الى ان تبليني حيث تقصدين . فقالت بادب ورقة اشكرك

يا سيدي لكن الموضع الذي تقصده قدمائي بعيد ولست احب ان اقل على
احد . قال مها طالت الطريق فانها قصيرة معك . فعلت حمرة الخجل محيما
الفتاة لهذا التلميح وساءها من هذا الغريب ان يبادرها بمثل ذلك الكلام
دون سابق معرفة بينهما فقالت اني على كل حال شاكرة لك واليك يا
سيدي عني

وكأن شارل لمح ان كلامه غاظها فقال استغفرك يا سيدي عما بدر مني
من الخفة في الحديث واسألك ان تقبلي الخدمة التي اقدمها لك . واني آخذ
العهد على نفسي بالا افوه امامك بكامة لا يكون ملؤها الاحترام . فقالت
لا حرج يا سيدي عليك لكنتي سائرة الى موضع لا احب ان يرافقتي اليه
احد قال اسمحي لي ان اظلك من المطر الى باب المكان الذي تقصدينه فقط
ثم انصرف دون ان اسألك عن شيء سوى عن اسمك واسم ابيك عساني
ان احظى بمعرفته . فقالت اما اسمي فشارلوت واما ابي وسكتت وقد
عاود محياها الاحمرار

فادرك شارل انها غير ذات اب معروف ونظر الى ذلك الجمال الباهر
والصبا الناضر — فان شارلوت لم تجاوز الربيع السابع عشر — فتحركت
في فؤاده عواطف الشفقة على تلك التي تحقق قول القائل ان الالباء ياكلون
الحصرم والابناء يضرسون والتي يحق لها دون سواها ان تتغنى بقول ابي العلاء
هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

وثارت في نفسه عواطف الحنو حتى كاد قلبه يسيل انعطافاً اليها ثم بسم
في وجهها وقال لا بأس ايها العزيزة منذ الان اسمك شارلوت وانا ادعى
شارل وانت صبية وانا شاب ولا يزال قلبي مطلقاً غير مقيد وحبذا لو يكون

فؤادك حراً . ومهما يكن من الامر فليس ههنا بالموضع الذي يجمل فيه الحديث فهل تتفضلين باعطائي عنوان والدتك لاقدم نفسي اليها ففاضت عينا الفتاة بالدمع وقالت : امي ... اني ذاهبة لزيارتها لكنك لا تستطيع ان تأتي معي اليها . فاضطرب الشاب لبكاء الفتاة ولمسمع ذلك القول منها وقال ولماذا فاجبت لانها منذ سنين في اللحد . وزادت بالبكاء

*
*
*

في مثل ذلك اليوم منذ سنين كاملتين اغمضت شارلوت عيني امها التي كانت لها في آن واحد امًّا وابًّا وكانت لها كل قريب ونسيب ... فتحت شارلوت عينيها للحياة في غرفة احد المستشفيات في باريس اذ استغوى امها ابن جارلابيها فلما بدت آثار زلتها هجرها ثم طردها ابوها كما تطرد الكلاب الجربة . ولما دنت الساعة الهائلة التي تصبح المرأة فيها امًّا تركت المسكينة الابرة التي كانت منذ طردها ابوها وهجرها الذي كانت تحسبه زوجها وانكرها اخوتها مكبة عليها الليل والنهار لتكتسب من وراءها قوت يومها والتمست المستشفى فجاءت شارلوت بين اولئك الغرباء واكبت امها ولم تسكن بعد اوجاعها على ذلك الوجه الصغير تقبله وتغسله بالدموع . وسمتها شارلوت لان اباهما المهاجر كان يدعى شارل وكانت الام التعيسة لا تزال مع خيانتها وغدره حافظة في فؤادها ذكره

وكانت شارلوت تنمو في كهالة امها والجمال يكبر معها فلما بلغت خمسة عشر ربيعاً وبدت ورده ناضرة في حديقة الحسن والبها وصارت اهلاً لمساعدة امها في اعمالها نزلت بتلك الام الحنوننة علة لم ينجع فيها الدواء ولا سهر شارلوت وعنايتها ولا البكاء

وسارت شارلوت وراء نعش امها وحيدة نادبة وعادت من عند ضريحها وحيدة باكية لا يمسخ دمعها الجاري كف والد ولا يذهب خزنها الدائم ابتسام شقيق ولا نسيب . وكانت شجاعة هذه الفتاة وغفها تعدلان جمالها فوضعت بين اناملها ابرة امها واقامت تقطع الايام بالشغل والتذكار والبكاء وزيارة ذلك الضريح العزيز الى ان جاء تذكار يوم الوفاة للعام الثاني فاعدت الازهار للضريح وهيأت مقتلتيها للبكاء وخرجت تقصد المدفن وهي تقول اماه يا اماه فدهمها المطر وفاجأها شارل « الثاني » وما زال بها حتى رضيت بان يرافقها للقيام بذلك الفرض البنوي المقدس

*
*
*

اذا دخلنا المقبرة التي فيها مدفن ام شارلوت رأينا فتاة جاثية على ضريح يدل ظاهره على فقر اهله وتدل العناية به على ما تصل اليه ارادة شابة غيورة على ضريح امها . ثم رأينا شاباً لا على قرب ولا بعد منها واقفاً وثقة الاحترام حاسر الرأس خاشعاً . وكانت الفتاة تذرف الدمع السخين وهي راكعة تصلي وتبتهل الى الله ان يفتح ابواب نعيمه لذلك الملاك قائلة في ختام صلاتها يا اماه انك تنظرين الي من السماء التي انت فيها دون شك وتقرئين ما في ضميري وفؤادي فهل سلوتك ساعة وهل سهوت طرفة عين عن تذكرك يا اماه اني لم ازل محتفظة بوصاياك مستمسكة بالفضيلة عائشة كما تحبين ان اعيش بين الشغل والعفاف وتذكرك فاسبغي علي يا اماه من العلو الذي انت فيه بركاتك الوالدية التي تحفظني في غيبتك كما كنت تحفظيني في هذه الدنيا وتكون لي درعاً اتقي بها سهام التجارب .. يا اماه يا ملاكي الحارس اذا كان شارل كاذباً في وعده فابعديه عني واذا كانت الساعة التي لقيته فيها ساعة سوء

فاجعلي ان لا القاه مرة اخرى . يا اماء اني لم اعرف وجه ابي وتد قلت له انه مات منذ زمن بعيد ثم انك قد تركتني في هذا العالم وحيدة فلتكن روحك الطاهرة مرفرفة على الدوام حولي حارسة لي واقية اياي من كل ما لا تحببني لي ولا يرضيك مني صدوره غي . يا اماء

حينئذ دنا شارل منها وكان بادي التأثر واخذ بذراعها وقال كفي وانفضها فنهضت والدمع يتناثر من مقلتيها وقد زادها البكاء حسناً وبهاءً والقت على الضريح نظرة اخيرة وتبعت الذي صارت تحسبه منذ تلك الساعة خطيبها

*
* *

نتقل بالقارئ الى ما بعد سنة من التاريخ الذي لقي فيه شارل شارلوت الى ما وراء سنة من ذلك الحب الخالص الذي ملأ فؤاد الفتاة وصيرها تعبد مع الله وتذكر والدتها ذلك الشاب الحبيب . الى ما وراء سنة كاملة لم ينقض منها الشهر التاسع حتى صارت الفتاة مثل امها اما غير شرعية لصبي له والد ولكن ليس له اب

اصغت الفتاة لحديث شارل وفتنها جبه حتى استسلمت اليه على وعد بالزواج وهي الساذجة القلب الصافية النية الجاهلة للاكاذيب والحيل والغدر فكان ما كان مما اشرنا اليه وصارت تنظر الى وجه الوليد باسمة فرحة قائلة مبارك انت اليها الرباط الذي يقيده بي الى الابد ...

ولما غدت الفتاة اماً زاد حبها لابي ولدها وزادت تعلقاً به وصارت تقضي الايام وتقطع الليالي وتعد الساعات والدقائق التي بينها وبين اليوم الذي تنتقل فيه من حال الى حال

ولقد جاء ذلك اليوم بعد سنة من معرفتها لشارل وكان ابنها قد صار

ابن ثلاثة اشهر حان اليوم الذي انتقلت فيه المسكينة دفعة واحدة ولكن من حال الامل والرجاء الى حالة اليأس والقنوط

وذلك ان النذير جاءها في الصباح منبهاً بان شارل الذي ترجوه وتنتظره وكان الى مساء اليوم الذي مضى يزورها ويعدها ويتسم في وجهها ووجه ابنها ليس الا كاذباً مخادعاً غادراً فانه خطب منذ شهرين فتاة غنية وهو يتيماً في صباح ذلك اليوم لموافاتها الى الهيكل حيث يعقد لهما القران

سمعت الفتاة هذا الخبر فادركت معنى كلمات فاه بها شارل عندما فارقها في مساء اليوم السابق اذ قال لها ان الاشغال تقضي علي بالتغيب اسبوعاً كاملاً فلا تنتظريني ولا تهتمي للسؤال غني مسكينة شارلوت كم مرة غسلت في تلك الساعة وجه ابنها بدمعها

ثم نهضت فلبست الملابس البيضاء التي خاطتها يداها وطرزتها اناملها واعدتها ليوم عرسها واللبست الطفل حلة من الدمقس وكتبت الى شارل تقول

السلام ايها الحبيب الغادر ... وعدتني فاخلفت الوعد وعاهدتني فنقضت العهد ولست بموجهة اليك كلمة ملام واحدة لانك لست الملموم . يصل كتابي اليك وانت امام الهيكل الى جانب التي اخترتها لتجعلها سعيدة بقربك وهي قد وضعت يدها بيدك جاهلة ان هناءها ينزل التي كانت ترجوك الى القبر . فلتكن اسعد حالاً من ام ولدك واتجهلن طول حياتها الشقاء والغم اذا كانت تنقذ من الموت طفلاً ذا ثلاثة اشهر تجده اذا شاءت مطروحاً الى جانب جثة امه التي تفيض انفاسها على ضريح امها في الساعة التي تتاوى شارل هذه الاسطر فيها

لما اتم الكاهن الصلاة وقرن بين شارل وعروسه واخذ الناس يتقدمون
لتهنئتهما اقبل رسول يحمل الى شارل كتاباً فظنوه كتاب تهنئة من صديق
غائب . لكن شارل التي نظره على العنوان فانقبض صدره ووجف قلبه وفض
ختام الرسالة ثم صاح يا شارلوت واندفع كالجنون نحو الباب تاركا عروسه
ولا هل والاصدقاء في حيرة وغم واضطراب

وخرج معه بعض اهله واخص اصدقائه وما زالت المركبات تجري
هم حتى بلغوا المدفن الذي فيه ضريح ام شارلوت وهناك المؤلم الفاجع . ضريح
كله الزهر وفي احد اكاليله طفل يبكي كأنما هو ينادي امه التي مزق
الرصاص احشاءها فسقطت على ذلك الضريح كأنها تعاقبه بذراعيها

واندفع شارل يجري الى ذلك الموقع وكان السابق اليه فلما رأى شارلوت
وقد فارقتها الروح ثار وخز الضمير فيه . حتى كاد يجن ومال على الطفل فقبله
كثيراً ثم على قتيلة خيائه ففسل جرحها بالدمع وتناول المسدس الذي سقط
من يدها ووجهه الى قلبه قبل ان يتمكن احد رفاته من منعه وفي اقل من
لحظة سقط جثة لا حراك بها على جثة التي احبته وماتت لاجله

وكان من امر عروسه ان هذه العذراء صارت في الحال اما ارملة
فلبست الحداد وتبنت الطفل واعطته اسم ابيه ولقبه وقامت على تربيته فلم
تفارقه ولم تفارق السواد وهي تخرج به الان الى النزهة فلا يراها احد ويشك
في انها امه وانه ابنها الوحيد . وفي كل يوم خميس وهو اليوم الذي وقع فيه
الحادث الكبير الذي جعلها اما وارملة قبل ان تصير امرأة تقوده الى المدفن
حيث ضريح شارل وشارلوت وهو يحسب انه جاث مع امه على ضريح ابيه

فقط فاذا رآها زادت بالبكاء طوق عنقها بذراعيه الصغيرين وقبلها بجنون قائلاً
لا يا أمه لا وانفضها وهو لا يعرف ان امه مع ابيه تحت ذلك الثرى
خليل زينه

ما قيل عن المرأة

المرأة صنعة يدي حاذق
المرأة تقول الحق دائماً ولكن ليس كل الحق
الحب طائر يفرد في قلب المرأة
لا يبدأ عمل عظيم بغير امرأة
ليس اسهل من اقتياد المرأة اذا اخذ الرجل بيدها
المرأة مثل ظلك تجري وراءها فتهرب وتهرب منها فتتبعك
الحب يقلل من لطف المرأة ويزيد في لطف الرجل
يسر المرأة ان تكون طائعة ولذلك لا تود الرجل الذي تشدد ضراوته اليها
لو خلقت وجوه النساء كلهن على قالب واحد لكان القالب مدفنًا للحب
لا يحب الرجل دائماً من يحترمه واما المرأة فلا تحترم الا من تحب
لو لم يبق في الوجود الا امرأة واحدة لبقيت اشياء تقال عن المرأة
قال فونتنل ثلاثة احبها دائماً ولا افهمها وهي التصوير والموسيقى والمرأة
يشهد نجاح الرجل بدون امرأة ولا سيما في الانشاء